دور علماء الحملة الفرنسية
فى دراسة خطط القاهرة

يندرج دور علماء الحملة الفرنسية فى دراسة خطط القاهرة فى إطار الجانب العلمى والثقافى للحملة. ويتَمَثَّل هذا الجانب فى شقين: إنشاء المجمع العلمى المصرى L'INSTITUT D'EGYPTE، وإنجاز كتاب «وصف مصر» DESCRIPTION DE L' EGYPTE.

حقيقة أن هذا النشاط يدخل فى باب النشاط الاستشراقى عمومًا، والذى بدأ قبل ذلك بنحو مائة عام بغرض دراسة الشرق العربى والإسلامى لمعرفة تاريخه وخصائصه ومعتقداته وطبائع شعوبه بغرض السيطرة عليه، أو على الأقل إمكانية التعامل معه.

وقد قام المستشرقون لهذا الغرض بدراسات عديدة بدأت بجمع المخطوطات الشرقية وفهرستها ونشرها نشرًا علميًّا، ثم القيام اعتمادًا عليها بدراسات متخصصة لجميع فروع المعرفة المختلفة للإسلام.

من أجل تحقيق هذا الهدف جاء تفكير بونابرت فى تأسيس مجمع علمى فى مصر على نمط المجمع العلمى الفرنسى، ليعمل من ناحية على أن يُدْخل إلى مصر عوامل تقدم الحضارة الحديثة، ويبحث ويدرس وينشر جميع الأعمال والوثائق التى من شأنها توضيح تاريخ المصريين الأوائل، ووصف حالة مصر الحديثة من ناحية أخرى.

المجمع العلمى المصرى L'INSTITUT D'EGYPTE:

تكوَّن المجمع العلمى المصرى L'INSTITUT D'EGYPTE من ٤٨ عضوًا، وكان ينقسم مثل المجمع الفرنسى L'INSTITUT DE FRANCE إلى أربعة أقسام: قسم لعلوم الرياضيات، وقسم لعلوم الفيزياء والتاريخ الطبيعى، وقسم للاقتصاد السياسى، ثم قسم للآداب والفنون

الجميلة. وكان أغلب أعضاء المجمع قد اختيروا ضمن البعثة العلمية والفنية التى تكَوَّنَت قبل مغادرة الحملة لفرنسا، أما بقية الأعضاء فكانوا من بين ضباط الهندسة والمدفعية وضباط الأركان.

وزُوِّد المجمع بموارد هامة، واستقر فى أحد قصور القاهرة الرئيسية التى خَلَت بهروب البكوات غداة دخول الفرنسيين إلى القاهرة، هو قصر حسن بك الكاشف بحى الناصرية (السيدة زينب)، وأصبحت قاعة الحرملك بالقصر ـ بإدخال بعض التعديلات عليها ـ هى قاعة اجتماعات المجمع. ووضعت فى قاعات القصر الأخرى آلات الطباعة والمكتبة والآلات والمعدات الفيزيائية والفلكية والكيميائية التى أُحْضِرَت من فرنسا. كما حُوِّلَت الحديقة الكبيرة الموجودة خلف القصر إلى حديقة نباتية، وأُقيم بها مرصدٌ فلكىٌّ.

بدأت أولى جلسات المجمع فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨، وكانت جلسة إجراءات تم فيها تشكيل هيئة المجمع من مونج MONGE رئيسًا، وبونابرت BONAPARTE نائبًا للرئيس وفورييه FOURIER سكرتيرًا عامًّا.

واعتبارًا من هذا اليوم أصبحت جلسات المجمع تُعْقَد كل خمسة أيام، كما أن BERTHOLLET كان يقوم كل عشرة أيام بعمل تجارب فى معمل الكيمياء كان حضورها متاحًا لمن يريد.

وقد طرح بونابرت على المجمع سلسلة من الأسئلة كَوَّنَت برنامج العمل الأول الذى كان على المجمع الاعتناء به. وكان لجميع الأسئلة أهمية محلية بغرض تحسين وضع سكان البلاد والجيش.

وفيما بعد عندما أتم الفرنسيون فتح جميع الأراضى المصرية وأصبحت الاتصالات بين جميع الأقاليم المصرية أكثر سهولة، تَحَوَّل أعضاء المجمع إلى نوع آخر من الأعمال، فقد كُلِّفَ بعض المهندسين برفع خريطة تفصيلية لمصر، وكُلِّف قسم آخر بعمل وصف صحيح لها، كما كُلِّف قسم ثالث بدراسة سلسلة من الأعمال التى يجب القيام بها ليصبح نهر النيل صالحًا للملاحة طوال فصول العام.

وحَدَّدَ الفلكيون الوضع الجغرافى للنقاط الرئيسية للبلاد، وخصوصًا تلك التى تحتوى على الآثار القديمة، بهدف تدعيم الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة.

وأعد العلماء الطبيعيون قوائم بجميع المنتجات الزراعية، وسجلوا جميع الملاحظات الفيزيائية والجيولوجية المتعلقة بالتغيرات الجوية.

أما علماء الآثار فقد قاموا بعمل حفائر بغرض مباشرة البحث واختبار جميع الأطلال التى يمكن أن تقدم معلومات جديدة للتاريخ.

ومن جانبهم قام المصورون والرسامون بتصوير ورسم كل ما من شأنه أن يقدم فكرة عن العادات والتقاليد والفنون المصرية.

ونظرًا لبعد الصعيد عن القاهرة واستمرار مقاومته، فلم يتمكن علماء الحملة من زيارته إلا بعد فترة طويلة وبعدد قليل، كان أهمهم العالم دينون DENON، علمًا بأن الصعيد يشتمل على العديد من الآثار التى تقدم مجالاً أوسع للتحقيقات والدراسات الجادة أكثر من مصر السفلى ومصر الوسطى.

وقد عيَّن بونابرت لجنة للإشراف على تنفيذ هذه المهام مقسمة إلى قسمين: الأول برئاسة سكرتير المجمع المصرى فوريه FOURIER، والثانى برئاسة المهندس المساحى كوستاز CO-STAZ، وكتب لكل منهما سلسلة من الأسئلة متعلقة بعمليات الزراعة والمنتجات الصناعية وبالتاريخ وتقاليد وأعراف البلاد.

ووجَّه بونابرت منشورًا دوريًّا إلى الجنرال ديزيه DESAIX، الذى عهد إليه بمهمة فتح الصعيد ومساعديه الرئيسيين، يوصيهم فيه بإلحاح بحماية حياة وأبحاث أعضاء هذه اللجنة بجميع الوسائل المتاحة لهم(١).

وقد قدم لنا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى الذى عاصر الحملة الفرنسية على مصر وصفًا للمجمع العلمى المصرى الذى أنشأه بونابرت، وتردَّد عليه بنفسه وزار أقسامه وقاعاته المختلفة، وأبدى إعجابه الشديد به وبنظامه، يقول الجبرتى:

«وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم والرياضة ـ كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين ـ حارة الناصرية، حيث الدرب الجديد وما به من البيوت، مثل بيت قاسم بيك، وأمير الحج المعروف بأبى بوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد ـ الذى أنشأه وشيده وزخرفه وضرف عليه

(١) اعتمدت فى سرد هذه المعلومات على مقالى جون إدوارد جوبى وهنرى بيريس Goby, Jean Edouard, "La composition du Ier Institut d' Egypte" *Bulletin de l'Institut d'Egypte* XXXII (1951), pp. 103 -120: Pérés, Henri, "L'Institut d' Egypte et l'oeuvre de Bonaparte Jugés par deux historiens arabes contemporains", *Arabica* IV (1957). pp. 113 -130.

أموالا عظيمة من مظالم العباد، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففر مع الفارين وتركه - فيه جملة كبيرة من كتبهم، وعليها خُزّان مباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه، وخصوصًا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعًا للنظر فى المعارف بذلوا له مودّتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير، وكرات البلاد والأقاليم، والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم، مما يحير الأفكار.

ولقد ذهبت إليهم مرارًا وأطلعونى على ذلك، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى ﷺ، ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم. . . .

وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم، ورأيت عندهم كتاب «الشفاء» للقاضى عياض، ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف، و«البُرْدَة» للبوصيرى، ويحفظون جملة من أبياتها، وترجموها بلغتهم. ورأيت بعضهم يحفظ سورًا من القرآن، ولهم تطلع زائد للعلوم، وأكثرها الرياضة، ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار. وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت.

وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة، وآلات الارتفاعات البديعة، العجيبة التركيب، الغالية الثمن، المصنوعة من الصفر المُمَوَّه، وهى تركب ببراريم. . . .

وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شىء، ومنهم أريجو [RIGO] المصور، وهو يصَوِّر صور الآدميين تصويرًا يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق، حتى أنه صَوَّر صورة المشائخ كل واحد على حدته فى دائرة، وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلَّقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر. وآخر فى مكان آخر

يُصَوِّر الحيوانات والحشرات، وآخر يُصَوِّر الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم، فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمنًا طويلاً.

وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك، ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح، وقدورًا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانًا أسفل وأعلى، وبهما رفوفٌ عليها القدور المملوءة بالتراكيب والزجاجات المتنوعة، وبها كذلك عِدَّة من الأطباء والجرائحية.

وأفردوا مكانًا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة، وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاّءة والحلاّلة. وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات، وبداخلها أنواع المستخرجات.

وأفردوا أيضًا مكانًا للنجارين وصناعَ الآلات والأخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم.

ومكانًا آخر للحدادين، وبنوا فيه كوانين عظامًا وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلاً كثيرًا، بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط، وركَّبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديد العظيمة، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافة، وعليها حُقّ صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النار الحادثة من الاصطكاك، وبأعلى هذه الأمكنة صُنَّاع الأمور الدقيقة، مثل البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك»[1].

وصف مصر LA DESCRIPTION DE L'EGYPTE :

كان أهم أعمال المجمع العلمى المصرى INSTITUT D'EGYPTE فى الفترة التى أمضتها

(١) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٧، ٣: ٣٤ - ٣٧.

الحملة الفرنسية فى مصر جَمْع المادة العلمية اللازمة لإنجاز كتاب «وصف مصر» LA DESCRIPTION DE L'EGYPTE الذى يعد بحق أهم كتاب فى تاريخ مصر الحديث. فلأول مرة تخرج فى كتاب واحد مكون من مجلدات عدة دراسات تغطى جميع أرض مصر، وتجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية، وتدرس الأرض والطقس والجغرافيا الطبيعية والسكان وعاداتهم وتقاليدهم، وكل ما يتصل بتاريخ المجتمع وتاريخ العلوم والفنون. فقدمت هذه الدراسة وصفًا مخلصًا وتامًّا للمعابد والمنشآت والصروح التى تزدان بها مصر منذ قرون، والتى تجعل منها أغنى متاحف الدنيا.

وقام علماء الحملة بأخذ قياسات كل أجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة، وألحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للأماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح، وبالإضافة إلى ذلك جمع العلماء لوحة عن حالة مصر فى عصر الحملة، حيث وضعوا لأول مرة خرائط جغرافية تحدد بطريقة دقيقة ومفصلة مواقع السواحل والموانئ، ومواقع المدن الحديثة والمدن القديمة، ومواقع النقاط الهامة الأخرى، ومجرى النيل ومنابعه. وقد أقيم هذا العمل اعتمادًا على حسابات وملاحظات فلكية عديدة.

اشترك فى إعداد وتحرير هذه الدراسة الهامة علماء رياضيون وفلكيون ومهندسون، وعلماء طبيعة ومستشرقون، ورجال أدب ومعماريون، ورسامون ومصورون. وفور عودة هؤلاء العلماء إلى فرنسا أنفقوا سبعة عشر عامًا فى إعداد وتصنيف المواد التى جمعوها أثناء إقامتهم فى مصر.

وصدر هذا العمل الضخم فى طبعتين: الطبعة الأولى فى تسعة مجلدات من الحجم الكبير، بالإضافة إلى أحد عشر مجلدًا ضخمًا لِلَّوْحَات والأطلس الجغرافى (خمسة مجلدات للوحات العصور القديمة، ومجلدان للتاريخ الطبيعى، ومجلدان للعصر الحديث، ومجلد يشتمل على مقدمة لفورييه FOURIER سكرتير المجمع العلمى المصرى، مع شرح للوحات، بالإضافة إلى الأطلس الجغرافى المشتمل على خرائط مُفَصَّلَة لمدن وأقاليم مصر) استغرق العمل فيها من سنة ١٨٠٩ إلى سنة ١٨٢٢، وكُتب على غُلاف المجلدين الأول

والثانى أنها طُبعت «بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون الأكبر»، وظهرت بقية الأجزاء بعد سقوط نابليون، فكتب على غلافها أنها طبعت «بأمر من الحكومة».

أما الطبعة الثانية المعروفة بطبعة بانكوك فقد طبعت بناءً على اقتراح من المسيو C.L.F. PANCKOUKE رفعه إلى وزير داخلية فرنسا الكونت سيميون SIMEON الذى زكّاه لدى الملك، وصدر فى ستة وعشرين مجلدًا صغير الحجم، بالإضافة إلى مجلدات اللوحات والأطلس الجغرافى الحادى عشر، بناءً على مرسوم ملكى من الملك لويس الثامن عشر، بين سنتى ١٨٢١ ـ ١٨٢٩.

وكما كان هذا العمل إضافة هامة إلى تاريخ العلم فإنه كان أيضًا انقلابًا فى تاريخ الطباعة. فكما جاء فى مذكرة PANCKOUKE التى رفعها إلى وزير داخلية فرنسا: «أن هذا الإنجاز العظيم قد خرج عن الحدود المألوفة حتى الآن للمجموعات المحفورة gravure (اللوحات)، فقد كان يلزم الورق قوالب وأشكال لم يسبق استخدامها، كما أن مصانع أوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقًا بهذا الحجم، أو على هذه الدرجة من الجمال، بل لقد اصطنعت وسائل ثمينة لتطوير فن النحت أسرعت بتقدمه، كما أثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته».

خطط القاهرة فى كتاب «وصف مصر»:

فى دراسة سابقة لى أشرت إلى تاريخ التأليف فى الخطط المصرية وأنه فن من الفنون التى اختصت بها مصر الإسلامية، ونما وتطوّر بها بفضل مؤلفين من أمثال: الكندى، وابن زولاق، والقُضاعى، والشريف الجَوّانى، وابن عبد الظاهر، وابن المُتَوَّج، وابن دُقْماق، والمَقْريزى، وأبى المحاسن، وابن أبى السرور البكرى، وعلى مبارك، الذين نستطيع عن طريقهم أن نتتبَّع بكل دقة تطور التاريخ الطبوغرافى والمدينى لمدينتى الفسطاط والقاهرة اللتين كونتا عاصمة مصر الإسلامية طوال نحو ستة قرون[١].

وقد بلغ هذا الفن أوجه فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى مع مؤلَّف

(١) راجع، Fu'ad Sayyid, A., "Remarques sur Ia composition des Hitat de Maqrizé d'après un manuscrit autographe", Hommage à la mémoire de Serge Sauneron, Le Caere - IFAO 1979, II, pp. 231 - 258. ؛ ومقدمتى لمسودة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥، ٦ ـ ٣٥.

المَقْريزى الشهير «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» المعروف بـ «الخطط»، والذى استطاع فيه مؤلفه أن يجمع بمنهج علمى دقيق يعتمد على النقل والمشاهدة، والسؤال عمَّا ورد فى كتب الخطط السابقة عليه، والتى فقدت للأسف اليوم.

إذا كان كتاب المقريزى يُمثِّل قمة ازدهار التأليف فى الخطط بما للمقريزى من إلمام واسع بحركة التاريخ، وإدراك واضح بأنه ليس تاريخًا للدول والحكام، وإنما هو فى الأساس تاريخ الشعوب والعُمران، وما يصاحب ذلك من تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. إذا كان ذلك كذلك، فإن وصف القاهرة والقلعة الذى قام به جومار E.F. JOMARD، أحد علماء الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر، وكذلك وصف مارسيل J. MARCEL لجزيرة الروضة والمقياس ولجامع ابن طولون، يمثل تطورًا آخر لكتابة الخطط كما تراها عين الأجنبى. ومع ذلك فقد اضطر جومار دائمًا، فيما يخص وصف القاهرة، أن يرجع إلى كتابات المقريزى، سواء بطريق مباشر أو عن طريق مؤلفين آخرين، ليتعرف على الظروف والأحداث التاريخية التى صاحبت إنشاء أغلب المعالم التى ذكرها. وقد مثَّلت مشكلة اللغة عائقًا كبيرًا أمام جومار للاستفادة من هذه الكتب، وخاصة أنها كانت ما تزال كلها مخطوطة فى وقته، فيما عدا بعض مقتطفات نقلت إلى اللغة الفرنسية من «خطط» المقريزى وكتاب «نزهة الناظرين» لمرعى بن يوسف الحنبلى، لذلك فقد كان اعتماد جومار الأساسى، وهو يصف معالم القاهرة، على ترجمة سلفستر دى ساسى لرحلة عبد اللطيف البغدادى وتعليقاته الغنية عليها، والواقع أن نشرة وترجمة دى ساسى لرحلة عبد اللطيف البغدادى مازالت لم تحل محلها نشرة أخرى، برغم مرور نحو مائتى عام على صدورها.

والميزة الأساسية لوصف جومار، والتى تجعل منه مؤلفًا متميزًا فى سلسلة الكتب المتعلقة بتاريخ الخطط المصرية، أنه تسجيل ووصف لحالة مدينة القاهرة ولقلعة الجبل فى سنوات بأعيانها هى السنوات الثلاث التى أمضتها الحملة الفرنسية فى مصر، بل بالتحديد لحالة هذه المدينة خلال شهرين يبدءان أن من يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وينتهيان فى أواسط فبراير سنة ١٨٠٠، وهى الفترة التى قام فيها جومار بجولته فى القاهرة لتسجيل معالم المدينة على الخريطة التى وضعها المهندسون الجغرافيون المصاحبون للحملة.

يقول جومار فى مقدمة الفصل الثالث من «وصف القاهرة»:

«إن المعلومات التى ستطالعها فيما يلى هى فى معظمها نتاج عمل كلفنى به رئيس

المهندسين الجغرافيين لاستكمال الخريطة المساحية للقاهرة ولزيادة نفعها. وغرضنا من ذلك هو تسجيل الأسماء الصحيحة للمبانى العامة وللمعالم من كل نوع، فى الوقت نفسه الذى نسجل فيه أسماء الأحياء وشوارع المدينة على جميع أجزاء الخريطة. وكان يجب علىَّ كذلك أن أجمع معلومات عن التجارة والصناعة والسكان وعوائدهم.

وقد بدأت جولتى فى القاهرة فى ١٩ فريميار من السنة الثامنة (من التقويم الجمهورى) [١ ديسمبر سنة ١٧٩٩]، واستغرقت شهرين كاملين دون انقطاع يوم واحد. وكان يصحبنى فى هذه الجولة مترجم وكاتب أوداباشى يعرفان المدينة على أكمل وجه، ومعه ثلاثة أو أربعة أدلاء آخرين، وكانت الخيول تتبعنا من خلفنا فى صحبة الخدم. وفور حصولنا على أية معلومة كان يتولى كتابة الأسماء على الخريطة الأصلية بالعربية كاتب إما قبطى أو يونانى أو مسلم، كما أكتبها أنا شخصيًّا بالحروف الفرنسية. وكانت أوصاف المَعْلَم تسجل فى الحال وفى نفس مكانه على كراسة للمعلومات»[١].

وثمة ميزة أخرى لهذا الوصف، هى أنه لأول مرة تصحب الوصف الطبوغرافى خريطة تفصيلية، هى الأولى من نوعها، مثبت عليها حدود المدينة وشوارعها الرئيسية والجانبية وأهم معالمها سنة ١٨٠٠، مع شرح لما جاء على هذه الخريطة.

وترجع أهمية هذه الخريطة كذلك إلى أن تغييرًا كبيرًا كان قد طرأ على شكل مدينة القاهرة وعلى مقر الحكم فى القلعة منذ وصف المقريزى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وحتى وصف جومار فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، كما أن تغييرًا آخر شمل المدينة ومقر الحكم فى أعقاب هذا الوصف، أولاً على يد الفرنسيين أنفسهم الذين خَرَّبوا وأزالوا الكثير من المواضع التى ورد ذكرها فى وصف الحملة الفرنسية[٢]، ثم على يد محمد على باشا وأبنائه ـ وخصوصًا إسماعيل ـ حيث فُتحت طرق كثيرة أدّت إلى زوال العديد من نقاط الاستدلال التى عيَّنها سواء المقريزى أو جومار، كما ردمت أغلب برك القاهرة. وأخيرًا فقد انتقل مقر الحكم نهائيًّا من القلعة إلى قصر عابدين فى زمن الخديو إسماعيل.

---

(١) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ مكتبة الخانجى ١٩٨٨، ص ١٥٥.

(٢) الجبرتى: عجائب الآثار ٣: ٢٩ ـ ٣٤، ٩٧، ١٠٤ - ١٠٥، ١٥٩ - ١٦٣.

وإذا كان آخر كتاب خصّصه مؤلفه لذكر الخطط ـ وهو كتاب على مبارك «الخطط التوفيقية الجديدة» المعروف بـ «خطط على مبارك» ـ قد ألفه بعد وصف جومار بنحو قرن فى نهاية القرن التاسع عشر، فإن على مبارك لم يعتمد على وصف جومار، وإنما بنى كتابه على خطط المقريزى واتخذها نقطة بدء، وجعل همَّه تتبع الخطط والمعالم والآثار طوال القرون الأربعة التى تفصل بينه وبين سلفه العظيم، وأن يصل حاضر القاهرة بماضيها، ومع ذلك ففرق شاسع بين ما دوَّنه على مبارك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وما دوَّنه المقريزى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى: فكتاب المقريزى ينبض بالحياة ويتميز بالدقة، فى حين لم يزد على مبارك شيئًا كثيرًا على ما ذكره المقريزى، لأنه نقل أغلب كتابه وزاد عليه ما شُيِّد فى القاهرة فى زمن العثمانيين، موضحًا ما صارت إليه بعض المواضع التى ذكرها المقريزى وزالت معالمها بطريقة جافة.

وبرغم أن أهم أجزاء وصف جومار هو خريطة القاهرة وشرحها، الذى نستطيع عن طريقه أن نحدد بدقة موضع المعْلَم أو الأثر أو الشارع الذى يذكره، فإن خطط على مبارك جاءت خلوة من أية خريطة توضيحية؛ برغم معرفته بوصف الحملة، وبرغم أنه كان مهندسًا دَرَس الهندسة بفرنسا ضمن البعثات التى أوفدها محمد على لهذا الغرض؛ وخصوصًا أن كتابه تتعذَّر الاستفادة منه الاستفادة الحقة فى غياب هذه الخرائط التوضيحية. وبالطبع فقد ضاع الكثير من المعالم ونقاط الاستدلال التى ذكرتها «خريطة وصف مصر»، ولكن باستخدام خريطة حديثة للقاهرة بنفس مقياس الرسم (١ : ٥٠٠٠) كخلفية لخريطة الحملة يمكننا أن نُحدِّد بقدر كبير من الدقة أين كان يقع المَعْلَم الذى زال اليوم.

وبمقارنة وصف جومار بخطط على مبارك فإننا نجد أن خطط على مبارك قد تحَدِّد لنا مواضع الكثير من معالم القاهرة كما كانت فى نهاية القرن الماضى؛ ولكنها لا تقدم لنا تاريخًا أو وصفًا لحياة القاهرة فى نهاية القرن التاسع عشر، على عكس «وصف الحملة» الذى نستطيع من خلاله أن نرسم صورة واضحة لما كانت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمران فى القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، خصوصًا إذا عرفنا أن قسمًا كبيرًا من «وصف القاهرة» خصصه جومار للحديث عن سكان المدينة وعاداتهم وعن الصحة العامة وأهم الصناعات والحرف والتجارة الداخلية للمدينة.

وإذا كانت الخرائط المفصلة التى رسمها الفرنسيون لأحياء القاهرة ومعالمها وآثارها

وطرقاتها ـ التى كانت قائمة حتى سنة ١٨٠٠ ـ هى الأولى من نوعها للقاهرة، وكانت نقطة الانطلاق لأعمال رسامى الخرائط الذين وضعوا خرائط للقاهرة فى أيام محمد على باشا وخلفائه، فيحق لنا أن نتساءل: إذا كانت هناك محاولات لرسم خرائط للقاهرة سابقة على خريطة الحملة؟

لقد أثبت جان كلود جارسان بأدلة قاطعة أن أول خريطة وضعت للقاهرة ووصلت إلينا، وضعها شخص يُرمز له بالحرفين D.R فى زمن السلطان قايتباى فى أواخر القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى، وقد طُبعت هذه الخريطة التى تعرف باسم خريطة Matheo Pagano لأول مرة سنة ١٥٤٩ فى فينسيا، ثم أعيد طبعها مرة ثانية فى سنة ١٥٧٤. وفى سنة ١٧١٥ وضع الأب سيكار Sicard أول خريطة للقاهرة العثمانية، ولم تنشر هذه الخريطة للأسف، ومازالت محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس.

وأهم خرائط القاهرة التى وضعت بعد خريطة «وصف مصر» خريطة تصور القاهرة فى سنة ١٨٦٨ نشرها مارسيل كليرجيه M. CIerget فى كتابه عن القاهرة، وخريطة جراند بك Grand Bey التى رسمها فى سنة ١٨٧٤ بناء على أمر الخديو إسماعيل. وقد سجلت هذه الخريطة ـ التى اعتمدت فى الأساس على خريطة «وصف مصر» ـ التعديلات الكثيرة التى أُدخلت على القاهرة فى السبعين عامًا الأولى للقرن التاسع عشر، وخصوصًا فى مناطق الأزبكية وعابدين وبولاق وشبرا والقصر العالى (جاردن سيتى الحالية). وهذه الخريطة هى الأساس الذى وضع عليه هرتس باشا Herz Pacha، مدير لجنة حفظ الآثار العربية، خريطة الآثار الإسلامية بالقاهرة فى سنتى ١٩١٤ و١٩١٦، ثم اعتمدت عليها خريطة كريزويل K. A. C. Creswell التى طبعت أولاً مع كتاب «مساجد مصر» الذى أصدرته وزارة الأوقاف فى جزأين سنة ١٩٤٨ ومعها فهرس للآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، ثم أعيد طبعها بعد ذلك أكثر من مرة، وللأسف فإن هذه الخريطة لم تستبدل حتى اليوم، بالرغم من التغييرات والتبديلات الكثيرة التى طرأت على القاهرة فى الخمسين عامًا الأخيرة، والتى تجعل الحاجة ماسة إلى وضع خريطة أخرى أكثر حداثة للآثار الإسلامية.

أما وصف مارسيل J. MARCEL لجزيرة الروضة والمقياس فيمثل تسجيلاً للمعالم التاريخية التى كانت موجودة فى الجزيرة فى هذه الفترة. وقد حفظ لنا هذا الوصف معلومات هامة عن بعض الآثار الفاطمية والأيوبية التى كانت موجودة هناك حتى هذه الفترة

ثم زالت بعد فترة قصيرة ليحل محلها معالم أخرى أقيمت ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر.

فمؤرخ مصر الكبير المقريزى يشير فى كتابه «الخطط» فى سطر واحد إلى «جامع المقياس» دون أن يقدم لنا أية تفصيلات عنه. ولكن مارسيل فى نهاية القرن الثامن عشر يقدم لنا وصفًا وتخطيطًا لهذا الجامع، وتسجيلاً للكتابات التاريخية التى كانت موجودة على مدخله وعلى واجهتيه الجنوبية والغربية، وتوضح لنا هذه النقوش بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الجامع شيده ـ فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ـ أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. ولم يبق لنا من هذا الجامع سوى ماذكره مارسيل وصوره فى كتاب «وصف مصر».

كذلك فقد قدم لنا مارسيل وصفًا للقصر الذى شيده فى الطرف الجنوبى للجزيرة الملك الصالح نجم الدين أيوب، والذى زال اليوم تمامًا ليحل محله قصر المناسترلى، فى منتصف القرن التاسع عشر، الذى مازال قائمًا حتى الآن فى الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة، وحل محل جامع المقياس وقصر الصالح نجم الدين أيوب.